٧ ـ ما أكرم الحياة

ما أكرمَ الحياة، وما أسنى هباتها

ما أجودَ الأرض، وما أبسط راحتها

ولكن ما أعجزني عن الأخذ والقبول

ما أصغر جرّتي أمام فيض الحياة

وما أضيق حقيبتي حيال خزائن الأرض وكنوزها

ليتَ لي الف يد تمتدُّ وتتناول وتمتلىء ثم تفرغ لتتناول وتمتلىء ثانيةً بدلاً من يدٍ مرتعشةٍ مستترةٍ بطيات أثوابي

ليتَ لي الفَ يدٍ منبسطة أمام الحياة والأرض بدلاً من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من رمال الشاطىء

ليتَ لي ألفَ كأس تترعها لي الأيام والليالي فأشربها وأبقى ظامئاً، ثم استزيد الليالي والأيام، ثم أشرب وأبقى ظامئاً

ليت لي الف كأس بدلاً من كأس واحدة طافحة بنقيع أنانيتي، هذه الكأس التي ما ترشفتها مرة إلا هجعت نشوانَ شهراً كاملاً

ليتَ بي جوعَ الف جائعٍ ، فأجلس الى الف وليمة تولمها لي الفصول الأربعة ، فألتهم ألوانها بشوق ولهفة وأظلّ ساغباً لاغباً .

ليتَ لي الفَ حشاً طاوية بدلاً من هذه الأحشاء التي تبطنت بالاكتفاء قبيل ولادتي

ليت لي ألف أذن تسمع أُغنية تغنيني بها بلابل هذه اليقظة وشحاريرها ، وليتني أستعيد الأنغام بلجاجة من استعبدته سكينة السجون الف عام

ليت لي الفَ أذن بدلاً من هذه الأذن المصغية أبداً الى ندبة واحدة تتداولها أمواج البحر وهبّات الريح .

ليت لي الف عينٍ ترى كل ما يعرضه عليَّ الوجود من عجائبه وطرائفه ، وليتني أبقى تائقاً إلى مرأى ما خفي عني من أسراره ومكنوناته

ليت لي الف عين بدلاً من عين واحدة أغمضت إلا عن شعاعٍ شحيحٍ تغالبه الأنواء فوق خط الأفق البعيد

ليت لي الف جسد فأرتدي الف حلة يخلعها عليَّ الفُ صباح والف مساء ، وليتني بعد ذلك أخجل من عريي وتجرُّدي فأقف مستعطياً متسولاً أمام الامساء والاصباح

ليت لي الف جسدٍ بدلاً من جسد واحدألبسهُ الخوفُ رداء منسوجاً من الضباب .

ما أكرم الحياة وما أجود الأرض

ولكن ما أعجزني عن الأخذ والنوال

ما أعماني عما أعطى كل يوم بل كل ساعة

ما أشغفني بهذه الذات الصغيرة المحدودة

هي الذرة التي تحسب نفسها عالماً لا حدّ له ولا قرار

هذه النواة المشغولة بقشرتها عن جمال الغاية وكمالها

هذه الغرسة الواهية التي أيقظها الربيع من رقادها ثم رفعها الصيف ووضعها على منكبيه، ولكنها تتوهم اليقظة ميزة فيها والرفعة صفة من صفاتها

هذه النصبة المغمورة بالنور ولكنها تحسب ظلها على أديم التراب آية من آياتها

وهل أنا وحدي المأخوذ بالصغير المحدود دون العظيم الفسيح؟

ترى هل أنا وحدي رهين الظلمتين ظلمة الأنانية وظلمة الاستكفاء

أليس بينكم أيها الناس من تمرُّ به مواكب الحياة فلا يلتفت ليشاهد أمجادها بل يظل منحني الرأس يداعب بأصابعه سبحةً من حصى الوادي

أليس بينكم من اذا شرب غبةً من الماء نسي صانعَ الكأس بل نسي الينابيع والأنهار

ومن إذا تناول لقمة من طعام ترفّع عمّن طبخها بل عن الحقول والبساتين التي كوّنت عناصرها

ومَن إذا لبس رداء ناعماً توهم ان ذلك الرداء قد حيك بمعجزة لجلده الناعم، وأن الانسانية جمعاء لا تلبس سوى الألياف الخشنة.

ومن إذا توسّد فراشاً ليناً شعر براحته أولاً ثم تمثّل العالم كله متقلباً على الأشواك والحسك

ترى هل أنا وحدي أسير المحبسين محبس الدعوى ومحبس الكبرياء؟

أليس بينكم من إذا أشعل شمعة سخر بالكواكب ؟

ومَن إذا قال كلمة تصامّ عن تهاليل الدهور ؟

ومَن إذا كتب فقرةً ظنها زبدة النواميس والأنظمة

ومَن إذا تنهَّد تنهدة استهزأ بالعواصف والبراكين

ومَن إذا مشى خطوة ظنّ انه بلغ المشتري

ومَن إذا قفز فوق ساقية حسب انه حلّق فوق المجرَّة

ترى هل وُلدت وحدي عبد الغيبوبتين غيبوبة الجحود وغيبوبة النسيان

أليس بينكم ايها الرجال من إذا أحبته امرأة غفل عن عطفها ووقف أمام مرآته بجمال طلعته ؟

ومَن إذا قيل فيه كلمة حسنة تبختر كالطاووس بدلاً من أن يقف متهيّباً خجلاً

ومَن إذا حباه القوم بمكرمة توهم انه مغناطيس جميع المكرمات

لا ، لست وحدي رهين الظلمتين ظلمة الأنانية وظلمة الاستكفاء

ولست وحدي أسير المحبسين محبس الدعوى ومحبس الكبرياء

ولست وحدي عبد الغيبوبتين غيبوبة الجحود وغيبوبة النسيان

لست وحدي، فكلنا من جبلة واحدة، فالفخّار في عظامي كالفخّار في عظامكم، والعصارة التي تتمشى في عروقي مثل العصارة التي تتراكض في عروقكم

وما أشْبه فكرتي اللاّجئة الى المغاور بروحكم المحتجبة عن فضاء الله ولكن الحياة كريمة ولولا كرمها ما حسبتنا من ابنائها

ولكن الأرض جوّادة ولولا جودها ما سيرتنا أمام وجه الشمس(★).

(★) جبران حيّاً وميتاً ص ١٥٩ - ١٦٢. والدرر المختارة، م. س. ص ٧ - ١٣.